أهمية دراســـة التاريخ

للدكتور محمد مصطفى صفوت

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

مركز التاريخ فى التربية العقلية والجمالية كبير . فالتاريخ يزيد معلومات الدارس عن الحياة ، ويوسع أفق تفكيره ، ويرقى بقدرته على الحكم . وفى التاريخ يستطيع الإنسان البحث فى أسباب الحركات العظيمة ونتائجها ، وفى اتجاهات العالم لو أن حوادث هامة لم تقع . لا ريب فى أن طريقة البحث الذاتى وقراءة المصادر الأصلية وتفسيرها ونقدها تثير همة الباحث وتبعث فيه حب الحقيقة والبعد عن التحيز . وفى التاريخ مادة تساعد على تقوية أنواع الذاكرة التى لدى الطالب ، ففى رؤية الآثار والصور التاريخية ما يقوى بعض الأنواع البصرية من الذاكرة ، والتاريخ يقوى التذكر السمعى إذا كان عند الدارس استعداد طبيعى لتذكر ما يسمع ولتذكر نوع خاص مما يسمع . أما من حيث الخيال فللتاريخ قيمة كبيرة فى تدريبه وتوسيع مجاله . فالتاريخ القصصى يشبع رغبات صغار القارئين فى التخيل والبعد عن عالم الحقيقة الراهنة فيرون فيه أعمال البطولة ، ويتلو الحوادث بعضها بعضاً فيذهب بهم الخيال كل مذهب ولكن فى جدود الحقيقة . أما فى حالة المراهق الذى يشرد به الخيال نتيجة لثورة قوية يهتز لها جسمه وعقله ويرجع الفكر به إلى الماضى البعيد للانسانية أو يمتد به إلى المستقبل ثم ينقلب به إلى الحياة الحقيقية وهو كليل — يشفى التاريخ فيه هذه الرغبة فى الرجوع إلى الماضى ويفسر له النظم الموجودة ويخفف من حدة شرود الفكر . ويجد الباحث والدارس لذة عظيمة فى قراءته للتاريخ وتخيله للحوادث . فزيارة للأهرام والآثار حولها ، وتخيل فرعون يأمر وينهى وقد عنت له الوجوه ... كل هذا يستوقف النظر ويثير ذكريات لأيام رفلت فى حلاها مصر ... وفى التاريخ مجال واسع لتمرين الخيال ، يمده بالمادة التى هى أساس له ، ثم هو يدرب المقدرة على التخيل ويسمو به . ويساعد التاريخ على تذوق الفن والجمال . فهو معرض لنواحى الحياة الإنسانية : فهذا جانب السياسة ، وهذا جانب الاجتماع ، وهذا جانب العلم والأدب . هذه ناحية إرضاء الشهوات ، وهذه ناحية إرضاء الروح . هذه هى آثار المصرى ، هذه مسلاته ومعابده . هذه هى آثار الفن على حياة الإغريق ... هذا هو الأدب الذى فاضت به النفس البشرية . ما الشعور الذى يغلب على النفس حينما يزور الإنسان هيكلاً من الهياكل أو معبداً من المعابد أو مسجداً من المساجد أو قصراً من القصور القديمة ، أو عند ما يقرأ وصفاً لهذه الآثار ! ما الإحساس الذى تحسه النفس حين تقرأ وصف البحترى إيوان كسرى أو وصف ابن حمديس لقصور أمراء تونس !

وأخيراً ننتقل إلى قيمة التاريخ العظيمة فى التربية الوطنية والإنسانية . يولد الإنسان فى مجتمع تربط أفراده علاقات متعددة ، لا يدرى شيئاً عن نظم ذلك المجتمع وقوانينه التى هى كنز خلفه الماضى ، ماضى بلدته وماضى وطنه وماضى الإنسان ؛ فالنظم والمثل العليا التى عينت سير الإنسانية فى الماضى لا زالت هى التى تعين وتحدد السير فى الحاضر ، ولا مناص للانسان من تلقى هذه التركة بما فيها من أعباء ومسئوليات . وكيف يقوم بواجبه نحو ذلك التراث ونحو الوطن والمجتمع الإنسانى إذا لم يدرس هذه التركة وقيمتها ؟ وقد لاحظ حزب من المفكرين هذه القيمة ، فقالوا بتدريس التاريخ القومى والاهتمام به اهتماماً خاصاً . ظهرت هذه الفكرة بشكل واضح فى روسيا عقب كارثة سينيا ، وانتشرت فى أوربا بين الشعوب التى تتحفز للظهور والوحدة . رأت هذه الشعوب أن الوطنية الحق لا تقوم إلا على أساس الفهم لنظم الوطن ، وتقدير التركة التى خلفها ، وتحمل المسئولية التى تركها ، ومعرفة أيام عظمته وأيام محنته والعمل على نشر الرسالة التى خلق من أجلها . والتاريخ حينما يذكر بمجد الوطن ومحنته هو فى نفس الوقت يدعو إلى المحافظة على تراث الوطن سليماً للمستقبل ، إن لم يكن زائداً فغير منقوص ، لأنه يخلق العاطفة والشعور الذى يدفع الفرد إلى القيام بواجبه وتنير السبيل أمامه . على أن الغرض القومى لا يجوز أن ينسينا الأمانة العلمية وحب الحقيقة .

والتاريخ ليس سجلاً لماضى الوطن فحسب ، فهو سجل لماضى الإنسانية كلها . والنفس ميالة بطبيعتها إلى معرفة ما خلفه الإنسان فى كل مكان ، ذلك الإنسان الذى تربطها به وشائج القرابة والنسب . ولن ينكر مثقف قيمة ماضى الإنسانية لحاضرها . ويدلل المفكر الإنجليزى جراهام ولاس على هذه القيمة بأنه لو فرض وأصيبت الأرض بصاعقة لنسى كل فرد

العادات والمعلومات التي أخذها من الأجيال الماضية فتسعة أعشار سكان لندن ونيويورك سيموتون في مدى شهر ، وتسعة وتسعون في المائة من الباقي سيموتون في خلال ستة أشهر إذ لا يكون لديهم لغة ولا أفكار ولا معرفة بالقراءة والكتابة ... والإنسان محتاج إلى إنسانيته القديمة ليحيا حياة طيبة ، وكلما ارتقت به الحضارة زاد احتياجه إليها . التاريخ يشرح لنا الفكرة التي تسيطر على العالم ، فكرة التطور . قد يرى البعض أن العلوم الطبيعية والأدب يفسران ناحية منها ، والتاريخ يفسر النواحي السياسية والاجتماعية ، ولكن إنعام النظر يرينا أن العلم الطبيعي والأدب يدخل فيهما عنصر التطور نفسه ولذا لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى التاريخ

التاريخ يضرب لنا أمثلة حسية على الحياة ، فهذه حياة أناس عاشوا في ذلك العالم وأحسوا إحساسات خاصة ، تحاربوا وتصالحوا وطالبوا بحقوقهم وذادوا عنها أو انصرفوا إلى التمتع بالحياة وأحبوا الترف ، ماذا كانت نتائج أعمالهم ، ما بواعث فعالهم ؟ يبين لنا التاريخ اختلاف الناس وأثر ذلك الاختلاف ، وأن لكل فرد نحو بلدته ونحو وطنه ونحو العالم مهمة خاصة يؤديها في الوجود . وهو لا يبين لنا اختلاف الأفراد أو الطبقات فحسب ، بل اختلاف الأمم والشعوب أيضاً ، فلكل أمة رسالة قد أدتها أو هي في سبيل تأديتها للحياة . ثم هو يبين لنا اختلاف العصور ، فكل عصر يختلف عن سابقه له طابعه الخاص في طرائق تفكيره ومنتجاته . فعصرنا الحاضر يختلف اختلافاً ظاهراً عن العصور الماضية ومشاكلنا والموازين التي نحكم بها على الأشياء مختلفة عن مثيلاتها في الماضي ، ولكن الماضي ضروري لفهم مشاكلنا الحالية ، فالحياة كما يوضح لنا التاريخ في تغير دائم ، في تطور

يرينا التاريخ تعاون الإنسانية في ارتقاء سلم الحضارة ، كما يرينا أنها سائرة في طريق النمو والتحسن ، فالأفراد يحيون ثم يموتون ، والأمم تقوم وتسقط ، والحضارة تتقدم حيناً وحيناً تتأخر ، ولكن النمو مطرد . فالانسان كفرد تزداد حقوقه وأصبح أمامه مجال كبير لخدمة مستقبله وعائلته ووطنه والعالم . وينكر بعض المفكرين النمو في نواحي الروح والدين والأخلاق ؛ فالعصور الماضية عصور الأنبياء . ولم تتقدم الأخلاق خطوة ؛ فالقانون بين الدول لا زال قانون القوة . حتى في الناحية العقلية يشير البعض إلى مثل ذلك الجمود ، فلا دليل في نظرهم على أن عقل الإنسان الحاضر أرقى من عقل أفلاطون . ويقول هكسلي إنه لا يعرف دراسة محزنة لتفسير تطور الإنسانية مثل دراسة التاريخ . فالإنسان لا زال وحشاً ولكنه خير من الوحوش الأخرى . وأحسن الحضارات الحديثة لم تظهر لنا مثلاً أعلى أو شيئاً جديراً بالبقاء

ويرد على ذلك بأن التاريخ يرى لكل عصر مساوئه ، وأن الإنسانية لم تبلغ بعد حد الكمال ، وأن الطبيعة الإنسانية ذاتها لم تتغير إلا بمقدار ضئيل ، وإنما الذي يتغير تغيراً محسوساً هو تكيفها لظروفها الطبيعية والاجتماعية . ونمو محصول الإنسان من حيث المعلومات ومن الناحية المادية واضح ، فكشف العالم الجديد وكشف كثير من قوى الطبيعة واستغلالها لمصلحته ، وتكييف الإنسان للبيئة من إصلاح الأراضي وإزالة الغابات واختراق البحار والجبال والصحاري والهواء شواهد على النمو العقلي وعلى ارتفاع مستوى المعيشة . ولا ريب في أن زيادة المقدرة على التعليم والتعلم ، وتقدم العلم وسهولة الانتقال هي في مصلحة الرقي العقلي والأخلاقي والروحي

التاريخ يصف التطور الاجتماعي لا العضوي والبدني ، فإذا شعر الدارس بأنه يعيش في جو كله تطور ونمو فهو لا ينسى الماضي . سيقدر الحاضر وتزداد أمله في المستقبل . يعرف الدارس خلال التاريخ سر الإنسانية ويجد فيه أكبر خادم للفكرة الإنسانية ذاتها ؛ لأنه يقلل من حدة التعصب لقومية أو لدين وعادات . فالتاريخ يبين أن العالم لم يقم على حضارة واحدة أو لغة واحدة أو دين واحد أو عصر واحد — فلكل حضارة نصيبها يغبطها التاريخ إياه — يرينا أن الأمم تبادلت ولا تزال تتبادل أنواع الحضارة . ولئن كان العالم قد أفاد فن الحضارة المصرية القديمة فهو مدين للفلسفة اليونانية والفن اليوناني والقانون الروماني . ولا ريب في أن مدنية العصور الوسطى في الشرق والغرب كانت أساساً عملياً لحضارة العصور الحديثة .

محمد مصطفى صفوت